المحاضرة الاولى

مقدمة في عوامل ضعف وسقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب الامبراطورية الرومانية – أو غسطس يرسي امس الامبراطورية

اعتاد المؤرخون اعتبار حكم اوغسطس (٣١ ق.م ، ١٤ ب.م) نهاية العهد الجمهوري وبداية للعهد الامبراطوري في روما. والواقع ان اوغسطس نجح في إيجاد طراز من الحكم كان مزيجا من الملكية والجمهورية فقد احتفظت الدولة بمظهرها الجمهوري وذلك بالابقاء على سلطة مجلس الشيوخ ((السينات)) أو ((السانتو)) وفي الوقت نفسه تمتع اوغسطس بسلطات واسعة ، فهو القائد الأعلى للجيش الروماني، وهو المهيمن على شؤون الدول المهمة من ذلك صلاحيته في نقض أي من قرارات مجلس الشيوخ، وقدرته في التحكم في مجلس الشيوخ نفسه. يضاف إلى ذلك انه كان لاوغسطس الحق في تعيين جميع حكام الأقاليم الرومانية. وكان هؤلاء مسؤولون امامه مباشرة. واحتفظ مجلس الشيوخ بقسط من السلطة في إدارة الاقاليم الرومانية الداخلية البعيدة من الحدود اما تلك الأقاليم المتاخمة للحدود، فقد حصر حق ادارته بأغسطس مباشرة وذلك لاهميتها من الناحية العسكرية.

وتماشياً مع هذا الاتجاه الهادف إلى تقوية سلطانه الشخصي ، حاول أو غسطس بعث روح جديدة في الديانة الرومانية القديمة، تلك الديانة التي اضفت على حكام روما نوعا من الألوهية والقدسية. وفي الواقع، لم يكن الطموح الشخصي المجرد ، وحده، هو الدافع وراء قبول أوغسطس قرار مجلس الشيوخ برفعه إلى مصاف الالهة ومن المرجح ان يكون أوغسطس نفسه قد حث الشاعر الروماني فرجل على نظمه رائعته الشعرية في اطراء اوغسطس وفي الاشادة بانجازات عائلته.

وكان الهدف الشخصي اضفاء الهيبة والقداسة على منصب الامبراطور الخلاصة نجح أوغسطس في ارساء قواعد راسخة للامبراطورية الرومانية ، ولعل نجاحه هذا يفسر استمرار الأمبراطورية اربعة قرون من بعده ، على الرغم من الصعوبات الهائلة والمشكلات المعقدة التي واجهتها الامبراطورية. لقد حافظت الأمبراطورية الرومانية على نوع من التماسك واحتفظت بقدر من القوة خلال تلك القرون الأربعة، بفضل جيشها الدائم الكثير العدد والحسن التدريب والتسلح ، وبفضل جهازها الاداري ، وجودة وسائل مواصلاتها وصلاحية طرقها.

لكن الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي، لم تكن نفس تلك الامبراطورية التي خلقها اوغسطس عام ١٤ للميلاد. لقد شهدت الامبراطورية تطورات مهمة خلال القرون الثلاثة الأخيرة من حياتها ، فعمت فيها الفوضى وتدهورت اوضاعها الاقتصادية، وفقدت الامبراطورية الكثير من القاليمها المهمة مثل اسبانيا وبلاد الغال وبريطانيا . وكان الشطر الغربي من الامبراطورية اوفر نصيباً من تلك الفوضى السياسية وذلك التدهور الاقتصادي. والواقع ان اقاليم الامبراطورية في الشرق احتفظت بكثير من الازدهار والرفاه.

اما انتشار المسيحية في أجزاء الامبراطورية الرومانية فيمثل هو الآخر مظهراً من المظاهر المهمة التي تميز تاريخ الامبراطورية خلال القرون الثلاثة الأخيرة. وقد نجحت الكنيسة المسيحية في نهاية الأمر في ان تحل محل الامبراطورية الرومانية في قيامها بالمحافظة على وحدة الحضارة في أوربا خاصة بعد أن وفقت في نشر عقيدتها بين القبائل الجرمانية. وكان هذا بحد ذاته عاملا مهما ساعد هذه القبائل على تفهم تلك الحضارة وتقبلها.

عوامل ضعف وسقوط الامبراطورية الرومانية:

شهد القرن الثالث الميلادي نهاية النظام الذى اقامه الامبراطور اوغسطس بالفوضى وعدم الاستقرار السياسي فسحا المجال للدكتاتورية، وتعاقب الدكتاتوريات العسكرية أدت في آخر الأمر إلى الغاء نظام اوغسطس ذي المظهر الجمهوري برمته والى احلال نظام استبدادي على غرار الانظمة الشرقية محله. وتم هذا على يد

الامبراطور دقلديانوس.

وضعف روما وسقوطها من الأمور التي اثارت اهتمام الباحثين في كل العصور ووضعت لذلك تفسيرات كثيرة ومتباينة، فبينما أكد البعض على العامل السياسي وحملة مسؤولية السقوط ، ابرز فريق آخر دور العوامل الاخرى اقتصادية واجتماعية واخلاقية ، ولعله من الصواب القول أن سقوط روما لا يعزى الى عامل واحد، بل الى عوامل كثيرة تظافرت وعملت على اضعافها وعلى اسقاط امبراطوريتها العتيدة.

دور العوامل السياسية والعسكرية :

كانت مشكلة وراثة العرش الروماني من العوامل الرئيسة التي سببت الكثير من المرضى السياسية وادت الى عدم الاستقرار في انحاء الامبراطورية الرومانية فلم خلال تاريخ الامبراطورية الطويل نظام ثابت لوراثة العرش ، فكان الصراع بين المتنافسين على العرش يتكرر بعد وفاة كل امبراطور يتكرر بعد وفاة كل امبراطور.

ولم تكن هذه المشكلة جديدة بالنسبة إلى الامبراطورية ، بل هي من اهم ما تميز به تاريخها. والشيء الجديد في الأمر هو ان الفوضى التي كانت ترافق عادة الامبراطور الجديد، لم تعد تقتصر على روما ، بل تعدتها الى اقاليم الامبراطورية الأخرى، اضف الى هذا أن الجيش اخذ في التدخل أكثر فاكثر في الشؤون السياسية ، بل وحتى في اختيار الامبراطور. وقد أدى هذا التدخل الى سلسلة من الحروب الداخلية التي سببت بدورها تدمير الممتلكات ونهب المدن وخراب الريف، والحاق هذا كله الضرر البليغ بالانتاجين الزراعي والصناعي وبالحياة العامة.

وفي الوقت الذي ازداد فيه تورط الجيش في الشؤون السياسية فان تغيرا جوهريا طرأ على تركيبه فالجيش الروماني كان يتألف من المواطنين الرومان وكان في الواقع مدرسة يتعلم الفرد واجبات المواطنة الرومانية. وكان يقوده ضباط رومانيون جاءوا من اقاليم ذات صبغة رومانية اصيلة. ويقضي الضابط أو الجندي ما يقرب من العشرين عاما في الخدمة العسكرية يتقاعد بعدها ، فيمنح راتبا تقاعديا ملائما او قطعة من الأرض مناسبة . وهكذا يعود الى الحياة المدنية ، كمواطن صالح ليساهم في الحياة العامة. ولهذا صار الجيش الروماني بالنسبة للفرد وسيلة لتحقيق النجاح الاقتصادي والاجتماعي . واجتذب اليه خيرة المواطنين الرومان . ودأب الشباب تهيئة انفسهم للخدمة العسكرية ، في حين تمتع المحاربون القدماء بالعز والاحترام ولكن الجيش الروماني منذ اوائل القرن الثاني لم يعد بهذا الشكل فلم يكن العنصر الروماني هو العنصر الوحيد الذي يتألف منه الجيش ، بل دخلته عناصر اخرى غير رومانية ، اما العناصر الرومانية التي كانت لاتزال فيه فقد جاءت من اقاليم رومانية نائية ومن مناطق ريفية بشكل خاص وكان تأثرها بالمدنية الرومانية محدودا وتفهمها للمثل الرومانية و للنظام السياسي الروماني ضئيلا جدا .

فالسلم والرفاه اللذان سادا الامبراطورية الرومانية في القرن الأول للميلاد جعلا سكان المدن الرومانية يفضلون حياة الاستقرار والرغد على الحياة العسكرية المضنية والمحفوفة بالمخاطر. هذا من جهة، ومن جهة اخرى لم تعد الخدمة العسكرية تتعدى حراسة الحدود، ولم يعد فيها ما يشبع روح المغامرة والحرب ، ولهذا انصرف الكثيرون من الرومان عن الخدمة في الجيش ، التي اصبحت مملة رتيبة.

وجوبهت الحكومة الرومانية بهذا العزوف عن الخدمة العسكرية فاضطرت الى قبول انخراط من يود الانخراط فيه دون تمييز . وفقد الجيش الروماني تدريجيا صلته بالسكان الأكثر اصطباغا بالصبغة الرومانية ، وصار رجاله يمثلون فئة منفصلة . تتحكم فيها النزعة الاقليمية أكثر مما تتحكم فيها روح المواطنة الرومانية . ولم ينصرم القرن الثاني حتى صار الجيش الروماني يتألف كله تقريبا من عناصر ريفية : رومانية، وغير رومانية . لم تمسها الحضارة الا قليلا . واصبح ولاء الجندي لا يتعدى حدود كتيبته وضباطه.

حدث كل هذا في الوقت الذي ازدادت فيه اهمية الجيش نتيجة للصراع الداخلي والحروب الأهلية من ناحية ، وازدياد الأخطار الخارجية التي كانت تواجهها الامبراطورية من ناحية اخرى.

وشعر الاباطرة بأهمية الجيش بالنسبة لهم، فحاولوا استمالة رجاله بكل السبل وقد سار اغلبهم على المبدأ القائل (اجزل العطاء للجيش ولا تعبأ بالآخرين).

وهكذا اخذت الامبراطورية الرومانية تفقد صبغتها الدستورية القائمة على السلطة الثنائية – سلطة الامبراطور وسلطة مجلس الشيوخ . السانتو . ولما كان الأباطرة يعتمدون على الجيش وحده الابقاء على سلطانهم ، فقد دفعهم هذا الى ارضاء الحيش من ناحية، وشجعهم على التجاوز عل القوانين الرومانية وحقوق المواطنين الرومانيين من ناحية اخرى، والاستخفاف بالمؤسسات الدستورية من ناحية ثالثة.

ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث تحكم الجيش تحكما مطلقا في توليه الاباطرة وخلعهم . بل انه قام في كثير من الاحيان برفع رجاله الى المنصب الامبراطوري وكان فريق من هؤلاء رجالا طيبين وجنودا شجعان ، ولكنهم كانوا جميعا ضباطا صغارا من اصول ريفية ، وذوى تعليم محدود ، جاءوا من ثكناتهم ليتولوا مهام خطيرة تنوء بها كواهل اعظم السياسيين.

ويعتبر بعض المؤرخين ما حدث في الجيش ثورة اجتماعية ثأر فيها الريف الروماني والعناصر غير الرومانية ، عن طريق الجيش ، من البرجوازية وسكان المدن الرومانية المترفين والمتحضرين.

تعرضت الامبراطورية الرومانية الى مخاطر خارجية جسيمة منذ اوائل القرن الثالث للميلاد. فالفوضى التي سادت الامبراطورية ، شجعت القوى الخارجية على التجاوز على حدودها والتغلغل في ارضها . ففي الشرق قامت اسرة حاكمة جديدة بلاد الفرس هي الاسرة الساسانية سنة ٢٢٦ للميلاد. وقد استطاع الساسانيون احتلال انطاكية لفترة من الزمن ، كما هددوا بقية اقاليم ا الامبراطورية . وفي الغرب توغلت القبائل الجرمانية داخل حدود الامبراطورية. والواقع ان وضع الامبراطورية الدفاعي كان حرجا الى درجة اضطرت معه الحكومة الرومانية الى صرف مبالغ طائلة على تحصين الكثير من المدن الداخلية ومن ضمنها روما نفسها.

العوامل الاقتصادية والاجتماعية:

قد تكون العوامل الاقتصادية والاجتماعية اكثر غموضا ، واصعب توضيحا من العوامل العسكرية والسياسية . وعلى أية حال، فإن هناك بعض التطورات الاقتصادية والاجتماعية تبدو واضحة المعالم فالحروب الأهلية

والفوضى السياسية ادت الى هبوط ملموس في عدد السكان ، وقد اثر هذا تأثير بليغا في مستوى الانتاجين الصناعي والزراعي. وقد تركت فعلا مساحات شاسعة من غير زراعة . وبوجود حكومة مركزية ضعيفة لم تعد الطرق آمنة فتعرضت الطرق البرية الى عصابات من قطاع الطرق ، كما تعرضت الملاحة في البحر الأبيض المتوسط هي الأخرى الى تهديد مستمراً من قراصنة البحر. وانخفاض الانتاجين الزراعي والصناعي من جهة وفقدان الامن في البحر وعلى اليابسة من جهة اخرى ، اديا الى تدهور خطير في التجارة.

ومن المحتمل جدا على الرغم من فقدان الاحصائيات الدقيقة في هذا الشأن الا ان يكون الميزان التجاري الداخلي للامبراطورية في صالح ولاياتها الشرقية على حساب الولايات الغربية . ولعل هذا الاختلال في الميزان التجاري يفسر بشكل رئيسي ما عانته الاقاليم الغربية من الامبراطورية من شحة ملحوظة في النقود . ومما زاد في هذه الشحة نقصان الانتاج في مناجم الفضة والذهب الأوربية. وحاولت الحكومة الرومانية علاج تلك الشحة بتزييف النقود تخفيض نسبة المعدن الثمين فيها وقد أدى هذا العلاج الى التضخم. والى فقدان النقود لقيمتها ، الأمر الذي زاد في ارباك الحياة الاقتصادية وشل جميع مظاهر النشاط الاقتصادي. لقد ترك هذا التدهور الاقتصادي أبلغ الأثر واعمقه في الاقاليم العربية وادت هذه الأزمة الاقتصادية في المدن من جهة واستمرار الحكومة في جباية الضرائب من سكان تلك المدن من جهة اخرى الى انهيار الطبقة الوسطى. تلك الطبقة التي كانت من انشط طبقات المجتمع الروماني. ودفع بالكثير من ابناء تلك الطبقة من تجار وصناع الى ترك المدن والفرار الى الريف للعمل بالزراعة هناك. وفي الريف الروماني اصاب المزارعين الاحرار وصغار الملاكين. ما اصاب الطبقة الوسطى في المدن . فان تعسف السلطة المركزية ، وفداحة الضرائب المفروضة عليهم ، ادت بهم الى حالة بائسة من الفقر – والاملاق. وقد اخذوا ينحدرون تدريجياً الى مستوى العبودية والقنانة. وعلى النقيض من هذا الاجحاف الذي اصاب الطبقة الوسطى في المدن وصغار الملاكين والاحرار في الريف، استفادت طبقة كبار الملاكين من الأوضاع الجديدة. فان سعة المقاطعات الزراعية التي ورثها عن الاباء وثراهم البالغ ومنزلتهم الاجتماعية الرفيعة مكنتهم من الصمود امام الازمات السياسية والاقتصادي التي كانت تجتاح الامبراطورية ، ومهدت السبيل لهم للحصول على مكاسب وامتيازات سياسة واقتصادية جديدة على حساب الحكومة المركزية من جهة ، وعلى حساب – الطبقات الأخرى من جهة ثانية . لقد تحدت طبقة كبار الملاكين السلطة المركزية الضعيفة وامتنعت عن دفع ما كان يترتب عليها من ضرائب . وفي هذا الوضع الذي عجز فيه صغار الملاكين والمزارعين الاحرار عن منافسة كبار الملاكين . وضاقوا ذرعا بتعسف جامعي الضرائب الحكوميين، اضطروا إلى

التنازل عن اراضيهم إلى كبار الملاكين لقاء حمايتهم وتوفير العيش لهم. وهكذا فان هذه الطبقة النشطة سارت هي ايضا في طريق الاختفاء من المجتمع الروماني وتحول افرادها إلى عبيد وأقنان.

العامل الإداري

وفي خضم الفوضى السياسية والتدهور الاقتصادي مال الجهاز الاداري للامبراطورية الرومانية إلى التدني والانحلال. لقد كانت الامبراطورية تضم بلدانا واقاليم كثيرة جدا في أوروبا واسيا وافريقيا وكانت لجميع تلك البلدان والاقاليم ، في اغلب الاحيان خلفيات ثقافية متنوعة ولها نظم ادارية متباينة. ونجحت الحكومة الرومانية في عصر قوتها، في دفع الجهاز الإداري إلى العمل بدقة ومقدرة متميزتين حتى وصفت الادارة الرومانية بانها اكفأ ما شهد التاريخ القديم وعندما ضعفت الامبراطورية الرومانية، ودب الضعف في أجهزتها السياسية ونظامها الاقتصادي برزت التناقضات في انظمتها الادارية. واستغل الموظفون الاداريون للك التناقضات واستغلوا كذلك ضعف الحكومة الرومانية وفقدان الرقابة المركزية الصارمة فعاثوا في الإدارة فسادا. وبمرور الزمن اصيب الجهاز الاداري برمته بالشلل والعجز والفساد.

عوامل اخرى

ذكرنا في مقدمة هذا البحث ان سقوط روما من الامور التي اثارت الاهتمام والجدل عبر العصور. فبالاضافة الى كل ما ذكر من اسباب فقد عرضت اسباب و عوامل اخرى و طرحت تفسيرات متباينة. فهناك من عزا سقوط روما لاسباب خلقية تتلخص في ابتعاد الرومان عن الخلق الرفيع وانغماسهم بالرذيلة . وهذا ما قاله بعض مؤرخي الرومان في – اواخر عهد الأمبراطورية وراى فريق آخر من المؤرخين أن ما حل بروما لم يكن الا نتيجة لغضب الآله الرومانية لعزوف الرومان عن عبادتها ولاعتناق المسيحية. بل ان هذا الفريق لم يتورع عن اتهام المسيحية صراحة ، فقد قال ان المسيحية بما بثته من مفاهيم وقيم تتعارض مع القيم والمفاهيم الرومانية ، وما خلقته من بلبلة في المجتمع الروماني هي المسؤولة عن تدهور روما وسقوطها. ودفع هذا الاتهام المفكرين المسيحين. وعلى رأسهم القديس أوغسطين ، الى الرد عليه بشدة. وفسروا بدورهم ما حدث بانه ارادة الله يعجز البشر عن ادراك كنهها، ثم ان هناك من يعتقد ان ما حدث لروما جاء بسبب الجرمان.

فالقبائل الجرمانية المتوحشة عملت على بربرة المجتمع الروماني المتمدن هذا من ناحية ومن ناحية اخرى ، فان هجمات القبائل الجرمانية وتهديداتها المستمرة للامبراطورية استنزفت قوة الرومان وادت بالامبراطورية في نهاية الامر الى الانهيار والسقوط على ايدي الجرمان دون سواهم.